

ومما رأى القرشيون في أنفسهم. وما علموه من تاريخ جزيرتهم وما حولها، علموا أن سنة الله لا تتخلف في نصر الحق وإن عظمت التضحيات، وتكاثرت الصعاب. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

### ٣٨- موسى والخضر

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرُحُ حَتَّىٰ آ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ (الكهف: ٦٠).

وهذه قصة مما انفرد به القرآن الكريم، جاءت بين القصص الذي تحدى به القرشيون النبي ﷺ واستعانوا في هذا بأحبار اليهود.

وللقصة ارتباطها بالسياق العام لسورة الكهف، وما فيها من العبر، وما توجه المسلمين إليه من آداب التعامل وطلب العلم، وما تدفع به عن الإسلام. هذا في نفس الوقت الذي تبين فيه المستوى الكريم الذي كان فيه موسى، والمستوى الذي انحدر إليه أحبار اليهود بعد أن طال عليهم الأمد، ورضوا أن يناصروا أهل الشرك على أهل التوحيد.

ومن ناحية أخرى: فتحت هذه القصة أبوابا من الحوار بين مستويات العلم في الإسلام، وما كثر فيه القول عن علم الشريعة وعلم الحقيقة، وعلم الظاهر وعلم الباطن، والعلم المنقول والعلم اللدني الذي يفيضه الله على من يشاء من عباده.

وما ترتب على هذا من صراع بين الفقهاء وبعض المتصوفة حول مدى حجية مكاشفاتهم، وما تشرق به قلوبهم من علم..

وما أظن في القرآن قصة دار حولها من الحوار، وتمسكت بها أكثر من فرقة إسلامية، واتخذتها سندا فيما سلكته من طريق، أكثر مما كان مع قصة موسى والخضر..

ولنبداً بما جاء عنها من أحاديث وأكثرها تفصيلاً حديث ابن عباس وقد رواه البخاري ومسلم والترمذي، وقد جاء بروايات متعددة، كما أخرج أبو داود من الحديث طرفين مختصرين عن الغلام الذي قتله الخضر.. وقد اختار ابن الأثير في جامع الأصول (٢: ٢٩٧-٣٠٦) الرواية الآتية أصلاً، ثم ذكر أجزاء من الروايات الأخرى. وفي هذه الرواية يؤكد ابن عباس، أن موسى في هذه القصة

هو موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل، وينفي أي زعم بأن المقصود رجل آخر من بنى إسرائيل يحمل نفس الاسم.

جاء في حديث ابن عباس: سمعت أبا بن كعب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل. فسئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم، قال: فعتب الله عليه إذ لم يُردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه أن عبداً من عبادى بجمع البحرين، هو أعلم منك، قال موسى: أي رب، كيف لى به؟ فقيل له: احمل حوتاً في مكث، فحيث تفقد الحوت: فهو ثمّ، فانطلق. وانطلق معه فتاه يوشع بن نون..)) ويسير الحديث الشريف يعرض لنا لقاء موسى والخضر والمراحل الثلاث لحوارهما: السفينة والغلام والجدار.. وفى ختام الحديث نسمع تعقيب المصطفى ﷺ: ((يرحم الله موسى، لوددت إنه قد صبر حتى كان يقص علينا من أخبارهما)) قال: وقال رسول الله ﷺ: ((كانت الأولى من موسى نسيانا، قال: وجاء عصفور حتى وقع على حرف السفينة، ثم نقر في البحر، فقال له الخضر: ما نقص علمى وعلمك من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر)) وزاد في رواية: ((ما نقص علمى وعلمك وعلم الخلائق من علم الله، إلا مثل ما نقص هذا العصفور من البحر)) صدق رسول الله.

### شخصية الخضر:

وقد دار حوار كثير حول شخصية الخضر، أبرز جوانبه مدى حياة الخضر. والذي عليه الجمهور أنه مات، لأنه لو كان حيا لزمه المجيء إلى النبي ﷺ والإيمان به واتباعه. واستدلوا بالحديث الشريف: ((والذى نفسى بيده، لو أن موسى كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى))

هذا ما استند إليه الإمام ابن الجوزى، وعقب عليه بقوله: فإذا كان هذا في حق موسى، فكيف لم يتبعه الخضر لو كان حيا، فيصلى معه الجمعة والجماعة، ويجاهد تحت رايته (انظر جامع الأصول ٢: ٢٩٨ - ٢٩٩ هامش). وقال أبو الحسين ابن المبارك: الأخبار كلها (عن ذلك - أي عن بقائه - واهية الصدور والأعجاز، ولا يخلو حالها من أحد أمرين: إما أن تكون أدخلت على الثقات استغفالا، أو يكون بعضهم تعمد ذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾.. فما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان. ولم يثبت اجتماع الخضر مع أحد الأنبياء إلا موسى، كما قص الله خبرهما..

هذا ما ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري شرح صحيح البخاري، وعقب عليه بقوله: وأما ما جاء عن المشايخ، فهو مما ينقم عليهم، كيف يجوز لعاقل أن يلقي شخصاً لا يعرفه، فيقول له: أنا فلان فيصدقه؟..

فكل قول عن لقاء الخضر، وظهوره في بعض المواقع أو المعارك - ويرتبط بهذا تعدد قبوره ومشاهده، وانتشار لقاءاته في كتب الكرامات - كل أولئك لا أساس له من كتاب أو سنة أو مآثور.. هل نقول: أو عقل أودين؟

### أطراف القصة:

أطلت الوقوف عند هذه النقطة التمهيدية، وذكرت مراجعها، لأن بعض ضلالها لا تزال ممتدة في بعض أبناء الإسلام وطوائفهم، بما تحمل من خرافة وتفتح أبواباً من الزيغ..

فأطراف القضية، موسى وفتاه والخضر، سبقوا إلى الله تعالى جميعاً.. وبقيت بين أيدينا عبر القصة لا بعض شخوصها..

وتبدأ بعزم نبي من أولى العزم، هو موسى عليه السلام، ومعه فتاه يوشع بن نون، على رحلة من أجل العلم، يهون فيها بذل الجهد والوقت.. ويتبين هذا من قوله: ((أو أمضى حقياً)) فيتابع السير، لا يبرح ولا يزول عن هدفه ولو أمضى السنين بعد السنين.. والحقب لغويا ثمانون سنة.. والمقصود هنا هو: العزم والتصميم.

### مجمع البحرين:

ولكن أين مجمع البحرين؟ أو ما المقصود من مجمع البحرين وهو موعد اللقاء؟.

يقول البيضاوي في تفسيره. ومجمع البحرين ملتقى بحرى فارس والروم مما يلي المشرق وعد لقاء الخضر فيه. وقيل البحران موسى والخضر - عليهما الصلاة والسلام - فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن (أنوار التنزيل للبيضاوي ٢: ١٨)

ولكن هذا التعبير ((مجمع البحرين)) يستوقف النظر في القصة، وله نظائر تعطى شيئاً من التعريف، أو بعض الصفة، دون أن تذكر من التفاصيل، ما يحول دون تعدد الآراء فيها. ألا يستوقف هذا نظر الباحث؟ فلنذكر نظيراً:

عندما قص الله علينا أمر الملك أو القائد العادل في آخر سورة الكهف، قال: ﴿وَدَسَّأْتُونَا عَنْ ذِي الْقَرْيَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾.. ولم يذكر اسمه، واكتفى بهذه الصفة ((ذى القرنين)) وأن الذى قصه علينا القرآن هو بعض أمره ﴿قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، وفى حركته غرباً وشرقاً وبين السدين.. جاء الحديث مجملاً فى جوانب، مفصلاً فى جوانب.

ومن قبل هذا، عند ذكر قصة الكهف، وذكر صاحب الجنة رأينا إجمالاً فى جوانب، وتفصيلاً فى أخرى.. بينما فى القرآن أماكن ذكرها الله تعالى بكل تحديد، بحيث لا تدع أى مجال لتعدد الأقوال: أماكن ((محكمة)) مثل حديث القرآن عن مكة والبيت الحرام ومقام إبراهيم والصفاء والمروة والمشعر الحرام وعرفات.. وتقابلها أماكن متشابهات - إذا جاز أن نستخدم هذا التعبير عن الأماكن، كما هو أمر بعض الآيات - يمكن أن تتعدد فيها الآراء..

دون أن يصل التعدد إلى الفتنة.. ولنستعد معا آية سورة آل عمران وفى ضوئها نحاول السير:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ۗ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٧٠﴾ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۗ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٧١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّفُ الْمِيعَادَ ﴿٧٢﴾﴾ (آل عمران: ٧-٩).

وكأن الله سبحانه - وهو العليم الحكيم - يريد منا أن نتجه إلى مقاصد من الآيات، ونصرف عن مقاصد أخرى. يريد منا أن نبذل الجهد فى جوانب، ونصرفه عن جوانب.

هناك إذن منهج قرآنى.. مقصود.. وسنحاول أن نبين هذا المنهج، وفى ضوئته نسير فى فهم الآيات والتراكيب القرآنية. والله المستعان.

## ٣٩- الأماكن في القرآن: بين الحكم والمتشابه

﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

فى التعبير القرآنى (مجمع البحرين) وصف مجمل يدع المجال لأكثر من تفسير.. هذا هو المقصود من المتشابه فى الأماكن.. ولكن مع هذا فيه شئ من التحديد، تعين عليه أوصاف أخرى للمكان جاءت فى سياق القصة.. وكل من الإجمال والصفات المساعدة، ينبغى ألا يشغلنا عن الهدف الأساسى من القصة وهو ما فيها من عبر.. بعض هذه العبر يتصل بنزولها، ويؤكد موقف المصطفى ﷺ والمنهج الذى عليه أن يتبعه مع قريش واليهود معاً، كما يوجه المجتمع الإسلامى إلى العناية بأساسيات القصص القرآنى الداعية إلى العمل والإنتاج فى المجتمع، والإيجابية فى الحياة.

قول الله تعالى: ((وإذ قال موسى لفتهاه)) وما جاء فى الحديث الشريف عن علم موسى ومكانته بين بنى إسرائيل، يجعل المكان الذى حدثت فيه القصة، والمرحلة التاريخية، هى الحياة فى شبه جزيرة سيناء، بعد خروج بنى إسرائيل من وادى النيل، وبعد أن تلقى موسى وحى الله وكلماته وذهب إلى ميقاته وفى شبه جزيرة سيناء - أو على الأصح على أطرافها - ثلاثة أماكن مقترحة لتكون ((مجمع البحرين)):

**الأول:** منطقة رأس خليج السويس والقطاع الذى تشغله الآن قناة السويس.. وكان فيه فرع قديم للنيل يحمل الماء العذب إلى أجزاء من الشمال الغربى لسيناء.. وهو الفرع البيلوزى وكان مجمع البحرين هنا نقطة من نقط الالتقاء بين الماء المالح والعذب.

**الثانى:** الطرف الجنوبى لشبه الجزيرة وهى منطقة رأس محمد الحالية حيث يلتقى خليج العقبة وخليج السويس.

**الثالث:** الطرف الشرقى ورأس خليج العقبة فى منطقة العقبة الحالية وفيها سلسلة من المنخفضات فى وادى عربية تصل إلى البحر الميت الأنهار التى تصب فيه.. فإذا نظرنا إلى الأوصاف المساعدة وجدنا قرى قريبة، ووجدنا حرفة الصيد ونقل المسافرين، ووجود حكم مستقر يمثله وجود ملك، وإن وصفه القرآن بقوله:

﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ مما يدل على وجود قوة عسكرية معه، تستطيع أن تقهر الملاحين في هذه المنطقة، مما يرجح أحد المجمعين الشرقي أو الغربي ويستبعد - إلى حد ما - المجمع الجنوبي.

ومما حفظ التاريخ أن أكثر الآثار المتعلقة بقصة موسى تقع في الجانب الغربي من شبه جزيرة سيناء، وهو إلى خليج السويس أقرب، وتتوفر فيه فرص الاستقرار..

وقد يكون مجمع البحرين مصب أحد الأودية الجبلية في شبه جزيرة سيناء في خليج السويس.. وهي أودية كانت أكثر عمراناً وأوفر مطراً مما هو الآن.. فيكون المجمع نقطة على خليج السويس هي فم الوادي حيث لقاء بين المائين العذب والملح..

وإذا كانت حركة موسى وفتاه، وكل الذي ذكره القرآن من متاعهما مكمل وحوت.. أمكن استبعاد جميع المقترحات والفروض الأخرى التي قيلت عن مجمع البحرين وراء حدود سيناء.. وما يحمله هذا من غياب طويل، تنتفى معه العبرة من القصة والتوجيه فيها، وسرعة العودة إلى قومه، ليتعلموا منه ما تعلم من السلوك العلمى مع العبد الصالح.

#### المكمل والحوت:

نأتي الآن إلى الآية التي يعرف بها موسى العبد الصالح وواضح - ولا نملك إلا هذا القول - أن التوجه الأول إلى المكان المحدد كان بوحي من الله تعالى.. ولا يختلف الأمر عن توجهه إلى النار في الوادي المقدس.

كل ما كان على موسى وفتاه أن يسير في الاتجاه الذي حدده الله له.. وعند نقطة معينة ستحدث من الله آية. كان معهما حوت لطعامهما.. ونعود إلى حديث ابن عباس عن أبي بن كعب عن الرسول ﷺ لنقرأ فيه أمر الله لموسى:

احمل حوتا في مكمل، فحيث تفقد الحوت: فهو ثم، فانطلق وانطلق معه فتاه، وهو يوشع بن نون، فحمل موسى حوتا في مكمل، فانطلق هو وفتاه يمشيان، حتى أتيا الصخرة، فرقد موسى وفتاه، فاضطرب الحوت في المكمل، حتى خرج من المكمل، فسقط في البحر، قال: وأمسك الله عنه جريه الماء، حتى كان مثل الطاق (والطاق عقد البناء وجمعه أطواق، وهو ما عقد أعلاه من

البناء، وبقي ما تحته خاليا: النووى) فكان للحوت سربا، وكان لموسى وفتاه عَجَبًا.

ومع الممثل والحوت نذكر ما سبق أن أيد الله به موسى من معجزات كونية. العصا التى تنقلب حية. اليد البيضاء من غير سوء. شق البحر. تفجير الماء من الصخر. النار المقدسة التى تتيرو ولا تحرق. الجبل المرفوع كأنه ظلّه..

فحركة الحوت في الممثل واضطرابه وسقوطه في البحر، وتحول جريه الماء كأنها طاق، كان للحوت سريا.. هى فصل من قصة معجزات تتابعت في حياة موسى.. ثم إن الله أخبره بالآية.. كما جاء في الحديث الشريف. ولا نستطيع أن ندرك قصة الممثل والحوت بعيدة عن السياق العام لقصة موسى

وتقرأ قول الله تعالى:

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿٣٧﴾  
قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أُوِينَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ  
أَذْكُرَهُ ۗ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٣٨﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ ۗ فَارْتَدَّا عَلَى  
ءَأْثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٣٩﴾ كان يوشع مسؤلًا عن الممثل والحوت. وفي حديث ابن  
عباس توضيح للجهد الذى بذلاه في السير.. وما يلقاه الإنسان في سفره قد ينسيه  
بعض أمره. ففي الحديث عن موسى وفتاه بعد الصخرة والحوت.

فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، ونسى صاحب موسى أن يخبره، فلما أصبح  
موسى - عليه السلام - قال لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.  
قال: ولم ينصب حتى جاوز المكان الذى أمس به. قال: أرايت إذ أويينا إلى  
الصخرة، فإنى نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله  
في البحر عجبًا، قال موسى ذلك ما كنا نبغ، فارتدا على آثارهما قصصا. قال:  
يقصان آثارهما ((حتى أتيا الصخرة))..هـ.

وفي هذا الجزء من الحديث وقف الحافظ ابن حجر عند قوله فانطلقا بقية  
ليلتهما ويومهما.. فلما أصبح على إرادة سير جميعه.. هل هو مقلوب، وأن المراد:  
بقية يومهما وليلتهما ذلك لأن الإنسان لا يصبح إلا عن ليل؟ أو لعل المقصود: فلما

أصبح من الليلة التي تلى اليوم الذي سارا جميعه. والله أعلم (جامع الأصول: ٢: ٣٠٣ عن فتح الباري ١: ٥٧).

الذي يستوقفنا الجهد المبذول، والإصرار على الهدف، حتى يقول موسى - وهو من أولي العزم من الرسل - ﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ .. ثم ينظر فلا يجد طعاما، ولا يخبرنا القرآن أنه اشتد على يوشع في القول. فقد سارع الفتى بالاعتذار، وقبل موسى العذر، وسارا على الجوع يقصان الأثر حتى أدركا الصخرة ووجدا العبد الصالح.

في مواقف أخرى نرى اشتداد موسى وعنفه وسرعة غضبه ومؤاخذته: حدث هذا عندما ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَتْهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ (القصص: ١٥).

وحدث عندما عاد من ميقات ربه فوجد قومه يعبدون العجل:

﴿ وَالْقَى الْأَلْوَابِحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأعراف: ١٥٠).

ولكن في مواقف أخرى يرى منه رقة ومبادرة إلى عون الضعيف، وتوجيه القوة إلى عمل الخير، وادخارها للأفضل:

حدث هذا من قبل مع بنات الشيخ الكبير في مدين ﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (القصص: ٢٤).

وهاهو الآن يترفق مع فتاه، فلا يؤاخذها بما نسي، ولا يرهقه من أمره عسرا..

والآن: ماذا كان من أمره مع العبد الصالح؟